

كيف تم التعريب

في الجمهورية العربية المتحدة

للكاتب جمال الدين الشبال

ان التعريب أنواع فهناك تعريب التعليم وتعريب الادارة ، وتعريب المصطلحات العلمية والكتب ، وتعريب المجتمع ، والبيت والسوق والشارع .

ولم تعرف مصر في تاريخها الاسلامي بعض أنواع هذا التعريب ، ف لغة الادارة فيها كانت نائما ومنذ أمر عبد الملك بن مروان بتعريب الدواوين في أواخر القرن الهجري الأول هي اللغة العربية ، لم تتغير ولم تقبل ولم تحل محلها لغة أخرى في أي عصر من العصور ، حقيقة لقد خضعت لغة الدواوين العربية - شأنها شأن أي لغة أخرى من لغات العالم - إلى عوامل النمو والنهوض والضعف والركاكة في مختلف العصور ، وحقيقة دخلتها بعض الانفاظ والمصطلحات الفارسية والتركية في العصور العباسية والمملوكية والعثمانية ، ولكنها رغم هذا كله ظلت هي هي غلبة ظاهرة لها السيادة ، تقهر كل لغة أخرى ، وتبقى وحدها صاحبة السلطان وصاحبة المقام الأول .

احلال اللغة العربية محلها هدفا هاما من اهداف الحركة الوطنية التي كان يتولى قيادتها وقتذاك الزعماء الخالدون مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ، فلما كانت ثورة سنة 1919 وحصلت مصر على استقلالها المبتور سنة 1923 أصبحت العلوم تدرس في جميع المدارس المصرية باللغة العربية .

ومنذ انشئت الجامعات المصرية ولغة التعليم في الكليات النظرية وبعض الكليات العملية (الآداب والحقوق والتجارة والزراعة) هي اللغة العربية ، أما الكليات العلمية العملية فبعض علومها تدرس باللغة العربية وبعض آخر يدرس باللغة الاجنبية كالانجليزية والفرنسية والالمانية .

وقد التفتت حكومة الثورة الى هذا النقص ، فأمرت

ولغة التعليم في المساجد والمدارس والمعاهد المصرية كانت دائما منذ دخل الاسلام مصر هي اللغة العربية لم تبدل ولم تتغير ولم تحل محلها لغة أخرى اللهم الا في مرحلة قصيرة تلت الاستعمار الانجليزي ، فقد حاولت انجلترا بعد احتلالها لمصر في سنة 1882 أن تجعل التعليم في المدارس المصرية الحكومية - وكانت وقتذاك قليلة العدد - باللغة الانجليزية ، وعاشت هذه التجربة نحو عشرين عاما لقيت في خلالها مقاومة قاسية عنيفة ، فقد كان يجاور المدارس المصرية الحكومية الازهر الشريف ومعاهده تدرس باللغة العربية وترعى العلوم الاسلامية والعربية ، وكانت تجاورها كذلك مدارس عصرية حرة أنشأها الاملون وقادة الكفاح الوطني ، وكانت العلوم كلها تدرس فيها باللغة العربية ، وكانت محاربة للتعليم باللغة الانجليزية والدعوة الى

بإلقاء المحاضرات في كل العلوم بالكليات العلمية باللغة العربية ، وكونت لجان لتعريب المصطلحات وترجمة الكتب الجامعية أو تأليفها وأفادت هذه اللجان كثيرا من الجهود الطويلة التي بذلها مجمع اللغة العربية منذ انشائه ، وعزيت فعلا آلاف المصطلحات وطبعت عشرات الكتب في كل العلوم والعلوم الجامعية ، وبدئ عام 1961 بالسنة الأولى في كل الكليات العلمية فجعلت الدراسة فيها باللغة العربية ، وتليها في عام 1962 السنة الثانية ، وهكذا بحيث يصبح تدريس العلوم في الجامعات كله باللغة العربية بعد ثلاث سنوات .

بقيت الكتب وترجمتها الى اللغة العربية والمصطلحات العلمية وتعريبها وهذه هي المشكلة الوحيدة من مشكلات التعريب التي عرفتتها مصر منذ أوائل نهضتها الحديثة في مفتح القرن التاسع عشر ، ففي السنوات الأولى من ذلك القرن استقل محمد علي بحكم مصر ، وسعى سعيا حثيثا لاخذ بالحضارة الغربية في مختلف نواحيها ، ففتح مدارس عصرية كثيرة للطب وللهندسة وللزراعة والعلوم الحربية ... الخ ، واعترضت الحكومة في ذلك الوقت مشكلات كثيرة ، فتلاميذ هذه المدارس اختبروا من بين تلاميذ الأزهر ، ولم يكونوا يعرفون غير اللغة العربية وكانت العلوم التي تدرس في هذه المدارس علوما أوروبية حديثة ، وكان الاساتذة الذين يدرسونها في أول الأمر كلهم مدرسين أوروبيين ، وكانت اللغات التي يدرسون بها لغات أوروبية - وخاصة الفرنسية - ، ومع هذا لم تأبه حكومة ذلك الوقت بهذه الصعاب ، بل احتالت للتغلب عليها بوسائل كثيرة ، فعينت عددا من المترجمين - وكانوا في معظمهم من السوريين المسيحيين الملمين باللغات الأوروبية - لينقلوا الدروس عن الاساتذة الى الطلاب ، وكانت الخطة التي وضعت تتلخص فيما يأتي : -

I - كان المترجمون ينقلون الدروس الى اللغة العربية في حضرة الاستاذ وكان الاستاذ يمد المترجم بالشروح والتفسيرات اللازمة ليسهل عليه مهمته ، لان هؤلاء المترجمين لم يكونوا على علم بالمواد التي يترجمونها في أول الامر .

2 - وليتأكد الاستاذ من حسن فهم المترجم لما قال كان يطلب اليه أن يعيد ما ترجم باللغة الفرنسية او الإيطالية .

3 - كانت هذه الدروس المترجمة تملئ على الطلاب بعد ذلك فيسجلونها في دفاترهم الخاصة .

4 - كان المدرس يقوم بعد ذلك بشرح الدرس الذي ألقى على الطلاب ويجيب على أسئلتهم اذا أشكل عليهم فهم بعض عناصر الدرس ، وذلك عن طريق المترجم أيضا .

5 - كان الطلبة يمتحنون آخر كل شهر فيما درسوه ، وكان الاختيار لرياسة الاقسام على اساس التفوق في الامتحانات .

كانت هذه الطريقة الوحيدة الممكنة للتدريس في المدارس العليا أول انشائها في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وطبيعي أن تظهر لهذه الطريقة عيوب ، وأن يوجه اليها النقد ، وقد أحس بهذه العيوب رجال التعليم قبل غيرهم ، فاعترفوا في خطابهم الى ديوان المدارس بأن « الدروس التي يدرسها المدرسون الاجانب الذين لا يلمون باللغة العربية كان ينقلها للطلبة مترجمون لا يعلمون شيئا عن معناها ، كما أنه لا يمكن شرحها لهم لعدم المامهم بهذا العلم ، وهذا هو السبب الوحيد في تأخر الطلبة » .

وقد اتخذت اجراءات كثيرة لعلاج هذا النقص - وخاصة في مدرسة الطب ، منها :

أولا - بدئ بتكليف هيئة المترجمين في المدرسة بترجمة الكتب انطبية الى اللغة العربية (وأول كتاب طبّي مترجم الى اللغة العربية طبع في المطبعة المحقة بالمدرسة سنة 1832) ، وان كان هؤلاء المترجمون لا يتقنون اللغة العربية فقد عينت في مدرسة الطب طائفة من المحررين والمصححين من شيوخ الأزهر ، وقد استطاع هؤلاء الشيوخ بما لهم من معرفة بكتب الطب العربية القديمة أن يمدوا المترجمين بالمصطلحات الطبية الصحيحة ، كما كان لهم فضل كبير في تقويم أسلوب الترجمة العربي وتصحيحه ، والبعد به - على قدر استطاعتهم وعلمهم - عما يشوبه من لكنة وعجمة وركاكة ، اما المصطلحات الطبية الجديدة فقد اجتهدت

الهيئتان معا في ترجمتها أو وضع مصطلحات جديدة تؤنى معناها ، ومن هؤلاء الرجال مجتمعين تكونت « أكاديمية » تكفل امانة الترجمة وصحتها ، وأصبح للطب في خمس سنين قاموس تزيد كلماته على ستة آلاف كلمة .

ثانيا - الحق المترجمون تلاميذ بالمدرسة ليتلقوا العلوم الطبية ، فيسهل عليهم بعد ذلك معرفة المصطلحات وتفهم المواد التي ينقونها عن الاساتذة للتلاميذ ، والكتب التي يترجمونها .

ثالثا - ورؤى أيضا أن يشجع تلاميذ المدرسة على تعلم اللغة الفرنسية فانشئت لهم مدرسة لتعليمهم هذه اللغة ، وألحقت بمدرسة الطب .

رابعا - بعد مضي خمس سنوات على انشاء المدرسة اختير اثنا عشر تلميذا من أوائل الخريجين ونوابهم ، وأرسلوا في أول بعثة طبية الى أوروبا سنة 1832 ، وكان لاعضاء هذه البعثة شأن خطير في التدريس بمدرسة الطب وإدارة شؤونها ، وفي الترجمة والتأليف ، فقد أصدر مجلس إدارة المدرسة ، - بعد عودة هؤلاء المبعوثين - لائحة تعين الاعمال التي يناط بهم القيام بها ، كان منها - الى جانب اشتغالهم كمعيدين ومساعدين للاساتذة الاجانب - أن يقوموا بترجمة الكتب التي يختارها لهم أعضاء مجلس المدرسة ، ويعد الفراغ من ترجمتها ، ومنعا للشك في صحتها « يجب أن لا يطبع كتاب ما بعد الانتهاء من ترجمته قبل أن يعرض على مترجمي المدرسة ومصححيها أجمعين » .

هذا مثل مما كان يتبع في مدرسة الطب المصرية في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وعلى هذا النمط كانت تسير بقية المدارس العليا الأخرى ، بهذه الوسائل جميعا حاولت حكومة مصر في ذلك الوقت أن تنقل الغرب الى مصر لتحقيق مثلها العليا في الإصلاح ، ولكنها لم تحاول البتة أن تنقل مصر الى الغرب ، بل احتفظت لها بروحها وتقاليدها ، ولغتها ، بل لقد حاولت في كثير من الاحيان أن تمزج بين الخير في العالمين - الشرقي والغربي - فأقامت النهضة المصرية الحديثة على أسس متينة صحيحة ، ووجهتها - منذ ذلك الوقت

حتى الآن - الوجهة الطبية التي أفادت منها ، والتي لا تزال تعمل للافادة منها .

بقيت ناحيتان هامتان أخريان من نواحي التعريب في مصر لابد من الإشارة اليهما لأهميتهما :

أما الناحية الأولى فتتصل بالشركات والبنوك ، وذلك أن اقتصاديات البلد في معظمها انتقلت بعد الاحتلال الانجليزي في سنة 1882 الى أيدي الأوربيين ، فانشئت شركات وبنوك أوربية كثيرة : انجليزية وفرنسية وإيطالية وألمانية ... الخ ، وكانت كل شركة وكان كل بنك يستعمل في دفاتره ومراسلاته وحساباته لغة بلده ، وفي هذا امدار لكرامة البلد وحط من شأن لغتها ، الى أن كانت النهضة الوطنية الكبرى ، وارتفعت الأصوات تنادي بضرورة تعريب هذه المؤسسات الاقتصادية ، وارتفعت أصوات معارضة أخرى تقول باستحالة تعريبها ، فهي قائمة على نظم أوربية ، وتقدم انزعيم الاقتصادي الكبير طلعت حرب ، وانشأ حوالي سنة 1926 بنك مصر ، واختار مديره وموظفيه جميعا من المصريين ، وجعل كل دفاتره ومكاتبه وحساباته باللغة العربية فتلاشت أول أكذوية تقول بعمز اللغة العربية عن أن تفي بأغراض العصر الحديث في ميادين المال والاقتصاد . ويعد طفرة ثانية ، وبعد إلغاء الامتيازات الأجنبية في سنة 1936 صدرت الاوامر للشركات والمؤسسات الأجنبية بأن تطبع أوراقها ومراسلاتها باللغة العربية الى جانب اللغة الأجنبية .

ويعد الانطلاقة الكبرى ، بعد تأميم قناة السويس في سنة 1956 أممت كل البنوك والشركات والمؤسسات الأجنبية ، فأصبح مديروها وموظفوها جميعا من المصريين ، وأصبحت كل بياناتها ودفاترها ومراسلاتها باللغة العربية ، أمر جوهري جاد صدر من الحكومة ، فمن كان من موظفي هذه المؤسسات الاجانب يعرف اللغة العربية بقى ، ومن لم يكن يعرفها سعى لتعلمها أو استقال وانسحب في صمت وهدهد .

وأما الناحية الثانية فتتصل بالمدارس الأجنبية ، وقد كانت في مصر مدارس كثيرة من هذا النوع تتبع كلاً دولة وكل جنس ، فكانت هناك مدارس انجليزية

مضض وبدأت تدرس هنا كله باللغات الاجنبية ويشكل مشوه مفروض ، فعادت الدولة وأمرت بان تدرس هذه المواد جميعا باللغة العربية .

ثم خطت الدولة الخطوة الطبيعية الكبرى بعد تأميم القناة ، وأصدرت أوامرها بتأميم المدارس والمعاهد الاجنبية جميعا بحيث يصبح مديروها والمشرفون على توجيه سياستها التعليمية من المصريين ، وأبقت نظام التعليم - فيما عدا العنوم الانسانية من دين وتاريخ وجغرافية - باللغات الاروبية لان الدولة تؤمن بضرورة تعلم أكبر عدد ممكن من المواطنين هذه اللغات ، فهي عند ما فكرت في تأميم هذه المعاهد لم تكن تقصد الى محاربة العلم أو تعلم اللغات الاروبية ، وانما كانت تقصد ان تقضى على عوامل الانفصام في التكوين الثقافي للامة العربية ، وعلى اهداف الاستعمار الثقافي .

بهذه الخطوات جميعا تم تعريب المجتمع والثقافة والاقتصاد في الاقليم المصري من الجمهورية العربية المتحدة ، وعلى هذا النهج كانت تسيير سوريا ، بل لعل هذا البلد كان أسبق من مصر في بعض خطوات التعريب ، فقد بدأت جامعة دمشق تدرس علوم الطب المختلفة باللغة العربية منذ سنوات .

على هذا الدرب سار المشرق العربي في تودة وثقة ، وقد قابلته صعاب كثيرة ولكنه كان يتغلب عليها دائما بالصبر والايامان وتحديد الاهداف .

وفرنسية وأمريكية وإيطالية ويونانية والمانية الخ وكل مدرسة من هذه المدارس كانت في الواقع نقطة ارتكاز لاستعمار فكري ثقافي خطير ، وكان وجود هذه التشكيلة المعجيبية من المدارس عاملا من أكبر عوامل البلبلة وزعزعة العقيدة وانفصام عرى الوحدة في الفكر وفي الاسرة وفي المجتمع وفي الاهداف ، وكان يحدث ان يكون في الاسرة المصرية الواحدة ابن تعلم في مدرسة انجليزية وابن ثان تلم في مدرسة ايطالية وبنث تثقفت في مدرسة فرنسية وبنث أخرى تثقفت في مدرسة المانية ، وكل من هؤلاء كان يكفر - بحكم تربيته وثقافته - بقوميته العربية وبالحضارة العربية ، ولا يؤمن الا بحضارة الشعب النى تثقف بثقافته ، وذلك ان هذه المدارس كانت تدرس للتلاميذ المصريين تاريخ وجغرافية إنجلترا وفرنسا وإيطاليا والمانيا ... الخ بالتفصيل اما تاريخ مصر وجغرافيتها واما تاريخ الوطن العربي وجغرافيته وحضارته فكم مهمل ، لا يدرس التلميذ ولا تدرس التلميذة عنها حرفا واحدا ، بل ان مدارس الارساليات الدينية كانت تدرس للتلاميذ المسلمين الدين المسيحي .

وادركت مصر ابان نهضتها الوطنية خطورة هذا الوضع ، فبدأت بان فرضت على هذه المدارس تدريس تاريخ اوطن العربي وجغرافيته ، وتدريس الدين الاسلامي للتلاميذ المسلمين وبلغت الوقاحة من بعض هذه المدارس انها عارضت اول الامر ثم قبلت على

